

محمد عبدالرحمن علال

عبادة
اب الافاعي
السود



تقديم الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب عبارة عن رواية لسيرة غيرية .تمثل مشاهدات الكاتب خلال مرحلة دراسته الإعدادية والثانوية من مظاهر اجتماعية ساهمت في بناء شخصيته الفكرية والوجدانية .وهي جرد لوقائع عاشها الكاتب فعلا مثل حضور حلقات الحلائقيين وجلسات السحرة . وأحداث واقعية مست أحد الشبان بعد تعرضه لعمل السحرة والعرافين على يد مجموعة من الفتيات جعلته يعيش الضياع والمرض من خلال اعتقاده بفكرة الطابو الذي مثله دمية وضعت داخل علبة مع قطعة قماش وساعة يدوية وسلمت له فصارت تتحكم في كل مجريات حياته.

إهداء

الرواية إهداء إلى كل الذين تعرضوا

للسحر وتحولت حياتهم إلى جحيم

بين العقل والنقل

منذ أن دخل "تيمح" سلك التعليم الإعدادي كطالب بإعدادية سيدي عبد الجبار بفجيج، إبان تلك الفترة الزمنية الفريدة من حياته وحياة الناس في منتصف سبعينيات القرن العشرين؛ منذ ذلك اليوم الذي سافر فيه رفقة أبيه لأول مرة على متن سيارة "أحمد زروال"، وقد كانت من نوع "فياط124" إلى فجيج؛ ذلك السفر الذي كاد يؤدي بحياته وحياة مرافقيه وبداية ساعات الصباح الأولى من يوم الأربعاء حيث توسط شهر شتمبر من عام اربعة وسبعين وتسعمائة والـف، حين أراد صاحب السيارة -مازحا كما ادعى- التلاعب بالمقود لاختبار خبرة وفطنة سائق شاحنة من نوع "فورد" ذات المقدمة الحمراء، كانت قادمة في الإتجاه المعاكس مسرعة- منذ ذلك اليوم الذي بدأت فيه قدماه تستعدان لتطأ أرض تلك المدينة البسيطة لأول مرة؛ منذئذ، أخذت عيناه تُفتحان على عوالم جديدة من الصور والحركة والأفكار، و من الخطر الذي يداهم فجأة؛ تُفتحان على أنواع جديدة من النفوس البشرية المغامرة الغامضة أمامه، في تقلبات مزاجها وأهوائها وطباعها عند كل لحظة، وأمام أي موقف، وتحت أي ظرف أو ضغط. تُفتحان على تأثير الفراق-فراق الأسرة عند أول تجربة- على نفس المفارق. تُفتحان على عوالم تغذيها في نفسه ثقافة هؤلاء الناس وعاداتهم وتقاليدهم وتصرفاتهم الغريبة ، وما

يتأثرون به في محيطهم، في تلك المدينة العريقة التي سيصلها بعد ساعة من الآن ، المدينة المختلفة - سواء من حيث **بنيتها** الطبيعية، أو العمرانية أو من حيث تركيبتها البشرية- عن المدينة التي كان يقطن بها بعد رحلة الهجرة من قريته الوديدة على الحدود "إيش". منذ ذلك اليوم الذي مر ببعض أزقة فجيج المسقفة شبه المظلمة؛ يومها، آنسته الواحة بجمالها، بنخيلها، بقصورها، بماء سواقيها- وقد اكتشف وجود بعضها في عالمها السفلي حين انزلت قدمه ذات مساء تحت المطر عند إحدى الحفر بالطريق العام، وأوشكت أن ترمي به إلى غياهب تلك السواقي الممتدة إلى الأبد فتغرقه كغرق الدمية - منذ ذلك اليوم الذي أطل فيه من أعلى أحد أجراف فجيج "أزرو" كما يسميه أهل البلدة، فبدأ أمامه ذلك الفضاء المتناسق من أشجار النخيل جميلاً، يمتد عبر الأفق البعيد دون الحدود الوهمية، تتبسم له على الجوانب كثبان من الرمال الصحراوية الصفراء الذهبية؛ فضاء تختبئ تحته في سلام، دور أبناء البلدة -وأغلبهم من الفلاحين- تستقر باردة الجدران تسترها الظلال. منذ ذلك اليوم، صارت تطارد عقله عدة تساؤلات حول الكون، حول طبيعة الحياة، حول طبيعة النفس و طبيعة المادة؛ حول الجمادات والكائنات الغيبية التي تسكنها دون أن تظهر للعين المجردة؛ حول حقيقة تأثير هذه المخلوقات على حياة الفرد الشخصية و المجتمعية.

لم يجد في نصوص الكتب المدرسية آنذاك، ما يجب عن تساؤلاته الكثيرة الغامضة، سوى ما كان يستأنس به من مواضيع في كتاب مادة التاريخ من سنته الأولى بالإعدادي- الملاحظة- و لم تكن حياة التمدن سوى في بداياتها الاولى- حيث ذكرت فيها أمم غابرة، رفع غموض اسمائها والأحداث فيها، و غرابة الشخصيات المبدعة ومواقعها، رفع من درجة طموحه إلى تعرفها، وإدراك درجة أثرها، والوعي بأهمية هذا الأثر ومدى واقعيته.

تحدث الكتاب عن حضارة بلاد ما بين النهرين-بلاد الرافدين وأعلامها كحمورابي وقانونه، و مدنها مثل بابل، وحدائقها المعلقة. تراكمت الأفكار في عقله جبلا، تدفعها قوية، رياح شغفه العاتية نحو تبين معنى كلمة "معلقة"، يريد أن يفهم لماذا هي معلقة إذن؟ وكيف تم تعليقها؟ لماذا تظل معلقة؟ أن يتبين شكل هذه الحدائق المعلقة. أن يزيل تلك الصور المغلوطة العالقة بذهنه- ربما بسبب سداخته- عن كلمة "معلقة"، وكانت الصور آنذاك من ذلك العالم البعيد، قليلة أمام انعدام وسائل الإعلام في منطقتة -ولم تكن وسائل التواصل قد ظهرت بعد، فتوفر ما يحتاجه لاستيضاح تلك الصور، واستبيان تلك الأحداث. تحدث الكتاب أيضا عن حضارة الاغريق- وعلى رأسها أعمدة الفلسفة وروادها كأرسطو وسقراط وأفلاطون وفيثاغورس- عن مملكتي إسبرطة وأثينا- في اختلاف الحياة السياسية بهما، في علاقتهما بالآلهة، ومدى تحكمها في عقول الناس و مصائرهم هناك -في القيم

التي مثلتها أثينا في الحكمة والإلهام والحضارة والعدالة والمهارة -المدنية، في شكل من أشكالها ومعنى من معانيها - - في تناقض مع قيم العسكرية والقوة والشجاعة عند المجتمع الإسبرطي القديم بكل ما لها من معان وأبعاد.تحدث الكتاب عن حضارة مصر الفرعونية وملوكها وآلهتها وأهراماتها؛ وما تحتويه سراديبها من ظلام وأشباح وأسرار وخوف وسحر، تغذيه في نفسه أكثر فأكثر، تلك الصور بالأبيض والأسود على ظهر ذلك الكتاب الفريد. كل ذلك، كان يخلف في كيانه اضطرابا عقليا ووجدانيا مثيرا .

تحدث كتاب التاريخ أيضا في ذلك الإبان عن رحلة حانون، وقد مثلت تلك الرحلة في نفسه مثالا لسفر عبر الزمن إلى اللامعقول ، الى اللاموجود. تخترق سفنه الشراعية بحر الظلمات، البحر الذي رسم له في ذهنه صورة أخرى حين اعتقد أن ما يملأه ليس ماء، بل ظلاما دامسا كالذي يغطي الكون منذ الأزل، و كالذي يحل على الأرض ليلا وغياب نور القمر. بات اسم حانون في حد ذاته منظارا يطل عبر مراياه على شطآن بحار الخرافة الشاسعة، المظلمة، المتلاطمة أفكارا. هذه الأسماء والعناوين كلها، لم تكن حينها تعني بالنسبة له شيئا ذا قيمة ، ليس أكثر مما تبعث في نفسه من خوف وحيرة، بل ليس أكثر من كونها حضارات قامت على أفكار أبدعتها عقول رجال تلك البلاد، ثم تآكلت واندثرت بعد أن استوفت مقدارها من الزمن والقوة والتوسع و التأثير، و تركت آثارا تشهد على مرورها على أرضية التاريخ

على تلك البقاع؛ ليس أكثر من كونها ارتبطت عنده
بالأساطير والخرافات والشعوذة والسحر والخيال
والظلال التي سكنت عقله وهو صغير في قرينته. ومع
ذلك، فقد مثل في وجدانه إرهاصات على بداية
شغفه بالبحث في علاقة الإنسان بالطبيعة التي
تبنته كابن لها منذ فجر الزمن؛ وعلاقته بالبحر
المحيط الذي حمله على ظهر أمواجه السوداء، عبر
غياهب ظلماتها الملونة المتبدلة إلى أمصار بعيدة
نائية مجهولة. وأبعد من ذلك، في علاقة النجوم
بأحوال البشر وحالهم ومآلهم، وقد خبر ذلك من
حديث جدته كل ليلة عن بعض المجموعات
النجمية باشكالها الهندسية- "كالثريا- والعصا
وطريق السراق-". "كل ذلك الشغف، لم يقده إلى
صياغة تعريف واضح لما ينتابه من شعور، ويسيطر
عليه من حال خارج الواقع؛ كما لم يبلغ به آنذاك
،رغم تقدم مراحل تأمله للأشياء، مرحلة تسمية
ذلك الشعور بالفلسفة بكل تعريفاتها ومعانيها، تلك
الفلسفة التي لم يكن يفهم منها سوى القليل كمادة
بدأ يدرسها بعد دخوله ثانوية عبد المؤمن بوجدة
أواخر سبعينيات القرن الماضي. كانت هذه المادة
تخوض في مواضيع مجردة كالبنوية والجدلية
والميكانيكا، والديداكتيك وغيرها من العناوين التي
ارتبطت بالمطلق، و تطلبت سعة في العقل، ودرجة
متقدمة من التعامل مع المنطق، وخصوصا ما
يتعلق بأساسيات الرياضيات. الفلسفة في كل
معانيها، لم تكن هدفا يسعى إلى بلوغه، لا تعلمها
ولافهما ولا توظيفها، عدا ما يُعدُّ منها للإمتحان

الكبير-إمتحان الثانوية العامة أو البكالوريا- بل ما كان يهيمه منها أساسا، هو تلك المادة التي ظلت لصيقة بها ورافقتها لسنين، وكان عنوانها: "الفكر الإسلامي". ظل هذا العنوان يزين غلاف الكتاب المقرر للسنة الأخيرة من التعليم الثانوي " الفكر الإسلامي والفلسفة " حتى أواسط ثمانينيات القرن العشرين. كانت المواضيع الأساسية التي تناولتها هذه المادة هي الصراع المرير الممتع بين فكر الأشاعرة بقيادة أبي الحسن الأشعري، وفكر المعتزلة الذي حمل لواءه واصل بن عطاء. أعجب جدا بالشخصيتين معا ، بالنظر إلى تأثيرهما البالغ على جمهور عريض من الطلبة والدارسين يومها؛ ولكونهما كانا محركين نشيطين للحركة الفكرية عند عموم الطلبة في تلك الثانوية على الأقل، إن لم نقل في كل ثانويات المغرب. نظمت على إثرها الندوات واللقاءات الطلابية -بين منتصر لهذا الفكر ومدافع عن الفكر الآخر- غالبا ما كانت تنشب ملاسنات بين الفريقين في تلك القاعة التي خصصتها إدارة تلك المؤسسة التعليمية كفضاء للمناقشات والمناظرات الأدبية والعلمية والفلسفية، يتفرق بعدها الجميع دون اقتناع ،سوى بضرب موعد لمحاضرة قادمة أكثر حدة في المناقشة والمنازلة الفكرية. ظهرت شخصية واصل بن عطاء أكثر استقرارا في عقله واشد استنفارا لفكره من الشخصية الأخرى، لأنه- وهو شاب- ظل وجدانه يتمثل تلك الشخصية في اسمها "واصل"، ويتمثل بموازاة ذلك، النشاط والجدل الفكري الذي استطاع هذا الرجل احداثه

بعد انفصاله عن حلقيه استاذہ ابي الحسن العلمية؛ إضافة الى ما احدثه المعتزلة ككل، من تحولات فكرية عميقة في المجتمع الإسلامي الناشئ، كونهم عاصروا الدولة العباسية، وخصوصا عهد المأمون، حتى ليتمكن تسمية عصرهم هذا بعصر النهضة العلمية او عصر الثورة العلمية الثقافية في ابعاد حدود و اوسعها؛ عصر قويت فيه حركة النقل والترجمة والعلوم التطبيقية وغيرها. اقبل على هذه الشخصية اقبال المتيم الولهان، لانه وجد أفكاره متقدمة وفعالة، تدحض الكثير من المظاهر والسلوكيات الاجتماعية السلبية التي سادت مجتمعه، والتي ألقى صعوبة كبيرة سواء في تقبلها، او في الاقتناع بوجودها وبتأثيرها على الناس، حتى و ان كان اثرها باديا للعيان بشكل جلي في غالب الأوقات. انعكس ذلك الاثر واضحا و بصور متعددة، ابرزها تحريم المساس بأشخاص بعينهم، دفعا بالناس الى تقديسهم وعدم النيل من مقامهم ومكانتهم؛ و تحريم تدنيس بعض الأماكن او هدم رسمها، مقابل الدعوة الى اضعاف طابع القدسية عليها بشكل من الاشكال- مغارة في جبل تَعَبَّد داخلها رجل من الزهاد، شجرة هنا او هناك -وقد تجاوز الامر هذا الى بعض الحيوانات و الجمادات، حبا في جعلها اما معبودة، واما وسيطا يقربهم من آلهتهم، سواء كان ذلك عن حق او عن باطل. هذه المعتقدات، كانت جزءا من فكرة الطوطم و التابو التي تناولتها مادة الفلسفة والفكر الإسلامي وناقشتها وناقشها الطلاب بشكل واسع على ذلك التاريخ. كان الاشاعرة -كما

شرح أساتذته- يعتمدون على الجمع بين العقل والنص في تفسير أمور الحياة دنيا وآخرة. اما المعتزلة فرأيهم هو اعمال العقل والتأويل والاجتهاد وتحكيمها في كل تعامل مع النص ،وعند أي تفسير لشؤون الحياة الدنيوية والاخروية للناس.نشأ متأثرا جدا بمنطق المعتزلة رغم ضعفه في الرياضيات لدرجة الصفر. كان يكره التعامل مع الأمور بالعواطف دون العقل ودون العلم.رأى أن العواطف تسيطر على فئة عريضة من الناس ،تؤثر بشكل سلبي على قراراتهم وردود افعالهم تجاه المواقف الانية والطارئة، توجه سلوكياتهم وجهات غير محمودة عواقبها احيانا. كانت لها قوة كبيرة في أسر عقولهم والتحكم في مواقفهم وتصرفاتهم ومعاملاتهم، بل وحتى في علاقاتهم ،سواء بأنفسهم او بالناس، ان لم يتجاوز ذلك الى علاقتهم بالله تعالى. كان يرى ان الاخذ بالعواطف والتعامل بها، امران يساهمان بقوة في تخلف المجتمع، امران يسهلان خداع الناس وسلبهم أموالهم و عقولهم و تشتيت شملهم؛ بل الأتكي من ذلك والأمر، هو قدرة المخادعين بواسطتها على تغيير مسار حياتهم ،وبعثرة الأوراق التي قد ثبتوا على مساميرها خيوط ارتباطاتهم ،و نسجوا عليها خيوط مستقبلهم . غالبا ما كانت الشهادة الكبيرة هي ما يقرب ويختصر طريق هذا المستقبل ويؤشر أوراقه. كان ينتظر ان ينال شرف ظهور اسمه ضمن قائمة الناجحين على احدى الصحف الوطنية التي كانت تخصص بعضا من أعمدة صفحاتها لذلك الحدث المنتظر بشغف

وخوف؛ حدثُ اعلان النتائج النهائية. لم يكن منشغلا بمستقبله، لأنه كان مضمونا لحد ما؛ كانت مناصب الشغل وفيرة على ذلك الزمن. لم يكن الحصول على الشهادة الكبيرة طريقا الى المنصب والتمتع بتلك القيمة الاعتبارية التي تمنحها للحاصل عليها فحسب، بل كان أيضا مفتاحا الى طي صفحة العزوبة، وفتح باب البحث عن شريك عبر قطار الزواج، قطار ستكون عرباته اولادا وبنات، ستتطلب تربيتهم وتنشئتهم جهدا كبيرا، ومتاعب جمة. ستكون الطريق الى هذه التنشئة شاقة بالفعل. سيكون كفاحا مريرا طويلا من اجل الخروج بهؤلاء الصغار والصغيرات الى الجانب المضيء من الدنيا. المكان والزمان والحال، حيث يجدون استقرارا نفسيا واجتماعيا وماديا مناسبا لشخصياتهم وزمانهم. لم يستطع التخلص من بعض الأفكار التي استخلصها من دروس مادة الفلسفة منذ اول سنة له في التعليم الثانوي، خاصة ما ارتبط منها بفكرة الطوطم والتابو، حتى بعد بلوغه من الكبر عتيا. كان يخاف ان يقع في براثن هذه الفكرة، او ان تصيب بسهامها الوسخة احد أبنائه او بناته بعد كل ما سينفق من عمر و جهد ومال من اجل تعليمهم، والرفع من مستوى وعيهم. كم تمنى ان يكون له أبناء وبنات فيسميهم بتلك الأسماء التي كانت تمر امام عينيه وهو يقرأ كتب السيرة وكتب الفكر الإسلامي، او قصائد اعلام الشعر العربي سواء في الجاهلية او بعد الإسلام. كان يرى في تلك الأسماء ومن يحملها، جمالا وقوة شخصية وكبرياء وعزة

نفس، كان يدرك تمام الإدراك ان العصر الذي سيعيشه أبنائه سيكون مختلفا عن تلك الفترة التي كانت القوة والنفوذ فيها للعلم و الثقافة والتثقف..ويدرك ان هذه الأسماء ،سوف يكون لها وقع في نفوسهم امام اقرانهم، كما على نفوس اقرانهم بدرجات متفاوتة رفضا لها او قبولا .كان يعي ان العصر سيطبعه التطور؛ سواء على مستوى طريقة التفكير وطبيعة الأفكار، او على مستوى زوايا النظر الى الأمور والاشياء ،وبلورة المواقف تجاهها، كما على مستوى الأدوات والوسائل التي-لا شك بسبب تطورها التكنولوجي الهائل المخيف -ستقلب موازين التفكير؛ وطبيعة العلاقات بين الناس ،ومع الطبيعة، بل وحتى على مستوى العقيدة -مع الله- رأسا على قدم. ظل يعتقد ان لن يكون في زمان ابنائه مكان للعواطف والظواهر الميثولوجيا البالية التي سادت زمانه وقرينته؛ ظواهر كالسُلطانة، تاج رأسها السحر واعمال العرافين؛ ظواهر عاقت حركة العقل و حرিতে في الابداع،ولجمت قدرة الفكر على صياغة أفكار نيرة متقدمة ،ترقى بعقول الناس وتسمو بهم الى تمثل الحقيقة، و تصوّر الأمور الحياتية بشكل سليم ،وان يقودهم ابعدهم من ذلك الى معرفة الله تعالى ؛ومعرفة منشئهم ومآلهم. اعتقدَ جازما ان عقولهم بحكم ما ستتلقى من صنوف العلم؛وتُجربَ من أدوات التكنولوجيا المتقدمة،وتُخَبَّرَ من دواهي الحياة وصروفها ،لن تقبل بها ؛بل لن تسمح لها بالنفوذ والتغلغل اليها مهما تكن وسائل الاقناع المعتمدة. صار له ما أراد من بنين وبنات بعد

حصوله على تلك الشهادة الكبيرة ، وولوجه سوق العمل معلما، اسبغ عليهم من الأسماء ما صبا اليه وهو في ريعان الشباب. جعل من تعليمهم قمة ما يرتجيه في دنياه. كان عزمه على ان يدخلوا ارقى المدارس في بلاده املا اخر ظل ينشد بلوغه حتى وان ارتفع ثمن الجهد المطلوب لذلك. لم يتوقف توفقه الى رؤية أبنائه وبناته من خريجي المدارس العليا؛ فكل ما كان ينصحهم به على الدوام هو الاهتمام فقط بدراستهم ،املا في ان يفلتوا في مستقبلهم من التأثير السلبي للعادات السيئة التي رزح تحت وطأتها مجتمع ابيهم. كان ابوهم مولعا بحضور جلسات " الحلايقين" ، وهم منشطو حلقيات الحكي الذين كانوا يملؤون ساحات بعينها بمدينته. كانت الحلقية تقام بوجه خاص في ركن مشهور بها من طريق واسعة غير معبدة وسط المدينة ؛ ركن ظليل بعد عصر كل يوم ، لطيف هواءه ، خاصة في الفصل الحار. ركن اقرب ما يكون الى السوق الكبيرة المغطاة في "حي الجبل -" الحي الذي ظلت ذكريات الأيام التي سكنها فيه لا تفارق خياله؛ كان يلعب فيه مع اقرانه لعبة "حابا" و"البيسبول" و"الشريطة"؛ ولعبة "الغميضة" وغيرها من ألعاب الطفولة الجميلة؛ ركن صادف فيه كثيرا من المتسولين وهم يحملون على ظهورهم أكياسا يجمعون فيها ما يتصدق به الناس عليهم من دقيق او سكر ، اكثرهم من المشعوذين السحرة ؛ كانوا يطلبون الصدقة في ظاهر امرهم ، لكن ، حين ينفردون بإحدى ربات البيوت امام باب دارها ؛ يقدمون انفسهم على انهم

عرافون ، بمقدورهم فك ما بهن او بأزواجهن من
السحر ، فيأخذون بدل الدقيق او السكر مالا او
ذهبا. في تلك المساءات الواقعة عند عطلة آخر كل
أسبوع، يحلو الاستماع، وتستعد مفكرات العامة من
الذين سيحضرون العرض لفتح صفحاتها امام أقلام
خيالهم، لتكتب، لا بل لترسم، لا بل لتطبع عليها ما
تشاء من الصور الغريبة الموحشة يرويها الحلائي
باقتدار. يتوافد الى هناك اهل المدينة الصغيرة
جماعات ووحدا. على ابدان غالبيتهم عباات
بيض، تلتف على رؤوسهم عمامات بيضاء او ذهبية
اللون؛ ونعالا من جلد خشن تظهر من خلال
فجوات فيها، أصابع ارجلهم كبيرة الاظافر غليظة.
يحجزون بالمكان مقاعد وهمية، اما قعودا او واقفين
في زحام شديد ليشهدوا ما سيرويها "الحلائي"، وما
اعده لذلك المساء من زاد وغذاء لمخيلات مرديه،
ممن يستغل سذاجتهم ويوظفها كل التوظيف
لتستمر حرفته وتزدهر. يسعى هؤلاء الى ذلك المكان
سعي غيرهم من سكان المدن الكبرى الى احدى دور
السينما. من يُمن طالع هؤلاء الحلاييين، ان دار
السينما لم تتوفر بعد في تلك المدينة الناشئة،
فتشغل افلامها السكان عن حلقيتهم. لم يكن يؤمن
بما يقول هؤلاء عند انعقاد حلقتهم؛ لكن ذلك لم
يَحُلْ قط بينه وبين مسابقة الخطى لحجز مقعده
على أرضية تلك الساحة، و في جيبه ثمن المقعد؛
درهم او اثنان مما كانت تجود به عليه امه من وقت
لآخر. لم يصرفه هذا الاعتقاد عن فتح أذنيه
واسعتين لالتقاط كل كلمة يتلفظ بها الحلائي؛ وما

عطل وظيفة عينيه في ان تبقيها شاخصتين تجاه كل صورة تلتقطانها ،ثم ترسلانها فورا الى خياله فيتمثلها بصور أخرى اكثر اثاره . ظهر ولعه بذلك العالم الفريد من خلال ما كان ينقله صاحب الحلقة من اخبار وصور للأماكن البعيدة ، للأمصار الغربية التي تمتد الى ما وراء عين الشمس. الى البلدان الاعجمية التي يصنع ناسها الاعاجيب المبهرة. يأخذه العجب عند حديثه عن شخصيات مقدامة عرفها التاريخ القديم؛ وأخرى اكثر غرابة تؤتي الخوارق من الامور . بات كل هذا يفتح خياله واسعا ، و ينمي عنده ملكة البحث في التناقض الحاصل في حقيقة تأثير الظواهر الغيبية -وابرزها الجن و السحر والتابوهات- على الناس من عدمه؛ ظل من وراء كل هذا ينشد اكتساب مناعة فكرية ضد كل المضامين التي لا يصدق العقل على مصداقيتها.

في حضرة الحلایقی

اثناء حضوره جلسات الحلایقی ،سواء في طفولته أو في شبابه، كانت تدهشه كثيرا طريقة إلقاءه للحكايات مع اختلاف مواضيعها امام متابعي حلقته.لم يكن الحلایقی من خريجي مدارس التربية وما تعلم فنون السرد ،و ما درس علم النفس؛ لكنه ظهر يمارس التربية ،يلقي الدروس في التاريخ ؛لا تغيب عنه جغرافيا البلدان؛ يمهدا للسامع سلسلة ضمن عملية سرد يتقن لغتها وتقنياتها أيما اتقان؛ دروس في القيم النبيلة ؛هو الطبيب النفسي لا محالة ،يفرج كُربَ مهموميه ،يذهب بخيالهم الى هناك ،الى ما وراء الخيال، حيث الصور تتعامد بشكل افقي مخيف أخذ. يبدأ الحلایقی حصته المسائية بصوته القوي المسموع الذي يشبه النداء؛صوت تُردّدُ صداه جدران الدور البعيدة، وواجهات المتاجر القريبة من هناك. كانت النغمات الشجية للمزمار او الناي تنفذ الى دواخل الشاب "تيمح" كنسمات

الصباح في يوم ازهرت انواره؛ تتلقفها آذان الحاضرين من مختلف الاعمار بسمع مرهف، وتستقبلها قلوبهم بأحاسيس جياشة رقيقة. ينتبهون إلى درسه انتباه تلميذ مجد إلى معلمه. يفتتح صاحب الحلقة حصته بالصلاة على نبي الإسلام محمد؛ يصلي عليه ويسلم مرات عديدة قبل ان يدعو الحاضرين الى الصلاة عليه أيضا؛ يدور حول الحلقة دورة او دورتين وهو يقرع على طبله الدائري المتواضع؛ قد يقطع ذلك القرع حين يمد ذراعه بين فينة وأخرى ليلتقط الطبل ما يُعرف عند الناس هناك بـ"لَفْتُوحٌ"، وهي الدراهم الأولى التي تقطر داخله قبل بدء الحكى. اغلب النقود المقدمة كانت من فئة خمسة او عشرة دراهم ورقية تصاحبها دريهمات معدنية من طفل هنا او هناك ممن ثارت عاطفته فاخرج الدرهم دون شعور؛ كان الرجل يلف الورقات بين أصبعيه ويتابع الضرب على طبله. يختتم دورته تلك بقوله: "و لا إله إلا الله، محمد رسول الله"؛ يشرع بعدها يقدم للحاضرين صورة شاملة عن تلك البلاد ومواقعها وتضاريسها وشخصياتها التي صنعت الأحداث فيها. كان "تيمح" يعلم أنها صور خيالية فقط، عدا الأسماء فيها. صور لتضاريس ومعالم لا تتوافق مع ما في عقله حول خريطة تلك البلاد وتاريخها وأعلامها. لكن، رغم كل ما اعترى ذلك من مبالغة أو مغالطة أو تزييف غير مقصود للوقائع - تمليه الرغبة في إثارة عاطفة هؤلاء واستمالتها تجاه ما يروي - فإنه هو أيضا كان يصدقه. كان يصدقه حقا !!! . كان أسلوب

الحلاليقي في الحكي مليئا بكل الصور، كان جذابا، سلسا، أنساها منطق الأمور وحققتها. أغلب الذين يحضرون حلقتهم كانوا يصدقونه أيضا- سواء عن جهل أو سهوا، أو بسبب انسياقهم خلف أسلوبه السحري الساحري المجنون- بل، كانوا يتمثلون تلك البلاد بإحداثياتها وتاريخها وقادة جيوشها وأدواتهم الحربية، في تلك الصور المغلوطة المغشوشة المنسوجة على مقاسهم. حفظ تيمح تلك الأخبار عن ظهر قلب أكثر من حفظه لبعض مواد الدراسة في فصله؛ بل أصبح يعدها من وثائق التاريخ التي لم يتردد في أن يستشهد بها أمام معلمه. أغلب ما كان يطبع مواضيع الحلاليقي في ذلك الزمن، هو جانب السيرة النبوية، وبطولات المسلمين على صدر الإسلام، وفي عهد الرعيل الأول من الخلفاء الراشدين. كان يحلو له ترديد قصة أحد زعماء الروم- لم يجد له تيمح موضع قدم في كتب التاريخ القديم أبدا- قصة شخصية تاريخية ربما ابتدعها الحلاليقي أو نقلها عن سبقوه في "الحرفة" دون تحريف ودون تمحيص؛ ليزيد من إثارة شغف متابعيه، ويحمسهم للإستماع والمتابعة أفضل. رجل يحمل اسم "أبي ظَلْفَةَ"، إدعى الحلاليقي أنه من قادة الروم-ربما كان يقصد بهم أولئك الذين ذكرت هزيمتهم في القرآن الكريم - روى كثيرا عن شراسته، عن قوته وبأسه في المعارك. وروى عن وجهه البشع، عن ملابسه المدرعة، كان زعيم قومه وقائدهم في كل موقعة؛ كان مُهاب الجانب؛ مرعبا، يضرب له الخصوم ألف حساب وحساب؛ يخشونه خوفا، بل

ترعبهم مجرد ريح خفيفة تنقل خبرا بسيطا من أخبار تحركاته إن تحرك مقاتلا، تصيبهم وقفاته وإنجازاته على ساحات الوغى بالهلع؛ يقود قومه إلى النصر دائما؛ لكن ليس على المسلمين . كان تيمح ومن حوله المتعطشون إلى أخبار الحلايقي ينصتون بامعان واثقين ،قانطين. لا تنفرج أسارير وجوههم إلا حين يأتي متحدثا عن أحد القادة المسلمين الذي يلقن القائد الرومي وجيشه الدروس تلو الدروس ،قبل أن يقوم بقتله في إحدى الموقعات. ذلك ما تحدث به الحلايقي ،وزعم أنه حق. كانوا يقطعون حديثه بالصراخ ،بالتصفيق ،بالتكبير غالبا.سمعه يتحدث عن كثير من المعارك والأمصار؛بيد أنه لم يذكر قط أسماءها،و لا زمن لها في يومياته. يذكر الغبار المتطاير حين تدور رحى المعركة، فيوحي من خلاله أن موضعها هو الصحراء . كان كثير الحديث عن "السيد علي". يسهب كثيرا في ذكر نسبه وحسبه وأفضاله؛ لم يحدثهم قط عن وجهه ولا عن ملابسه. لكن الحديث عن سيفه البتار ،عن سرعة حصانه الخارقة التي تصل إلى سرعة "رمش العين"- كما كان يردد على الدوام- لم يفته أبدا؛ لا ريب أن المقصود كان "عليا بن أبي طالب"،رابع الخلفاء الراشدين .تكاد أنفاس تيمح تنقطع أمام ضخامة ما يسمع من أخبار عجيبة مدهشة عن ذلك العالم وهؤلاء الناس؛ تزكيتها في عقله صور خيالية ،صور سوداء ،بياض وضوحها ناصع كأنه الحقيقة؛صور تتشابك خيوط الأحداث فيها متدفقة كليل مضيء كلما مشت الحكاية خطوة نحو الأمام -لولا أن ينبهه فجأة

صوت الطبل يعاود دورته حول تلك الأرضية يريد
أجر ما حكي عند جمهوره؛ أو يستفيق من غفوته
على وقع تصفيقات المتفرجين المتعالية، وقد أمروا
بالإكثار من الصلاة على النبي قائلا: "صلوا على النبي
و"جيبو" عليها شامخة"- كأنها دعوة لأصحاب
الدكاكين المجاورة إلى إغلاقها و الإلتحاق بالحلقة
طامعا في بعض من نقودهم على مائدة حكايته. لم
يصادف تيمح اسم "أبي ظلفة" من قبل لا في كتب
التاريخ، ولا في كتب السيرة، ولا حتى في كتاب
الفكر الإسلامي والفلسفة «.لم يصادفه عند جبران
ولا عند مطران ولا عند المنفلوطي، لا في كتابات طه
حسين أو العقاد ولا عند غيرهم ممن كان يهوى أن
يقرأ لهم.ربما كانت معلومات الحلائقي بلا مصادر
موثوقة، خلا ما أتت به أفواه السابقين ممن تمرسوا
مع الوقت على إدارة الحلقات، وقد توارثوها بدورهم
عمن سبقوهم- لكن حضوره في الحلقات على مر
الأجيال ظل قويا لافتا باديا لكل عين. لم ينس
حديث ذلك الرجل عن قصة صبي يسميه "لَعْلًا" -
عاش في مكة أو في المدينة -حين أصر على الخروج
في إحدى الغزوات مع النبي. مثلت تلك الحكاية قمة
المواضيع المثيرة للعاطفة؛ وبالتالي، أكثر الحكايات
على تلك الساحة دفعا إلى ذرف الدموع حمما حارة
تقذف بها من الأعماق، براكين الأحاسيس الجياشة
التي تدلل على الإرتباط بين هؤلاء الناس وذلك
العالم البعيد، بأحداثه وشخصياته وعقيدته. توقف
ذهن تيمح كثيرا عند تلك الصورة المثيرة
للسفقة، صورة الصبي الراشد "لَعْلًا"، وأمه تساعده

على ركوب فرس أبيه الهالك، كم ظهر صغيرا بين يديها وهي تسلمه للموت ، كم بدا صغيرا جدا وهو يمتطي صهوة الفرس التي ستحملة بسرعتها القصوى إلى حتفه. كثيرا ما سمع هؤلاء المصطفين على شكل نصف دائرة حول صاحب الحلقة يرددون هاتفين: "جِيبْ لَنَا عَلَى لَعْلَا، جِيبْ لَنَا قِصَّةَ لَعْلَا" ظل مطمئهم عند كل لقاء، هو سماع حكاية "لعلا" المؤثرة. كان "لعلا"، كما صوره الحلايقي طفلا صغيرا ، لقي أبوه الله في غزوة مع النبي. أخبرهم أن أحد الصحابة حاول ثنَّيْهُ عن المشاركة في المعركة، لكن الصغير أبي إلا أن يمثل أباه في ذلك الموقف المهيب، لا بل أن يكون بطلا مغوارا مثله وهو يخوض غمارها . وتدور رحى الحرب الطاحنة؛ ويسقط الصبي مقاتلا ، ويعود المقاتلون بالخبر الحزين فيلقوه على أمه وهي في إحدى الساحات تنتظر ابنها؛ لكن الساحة أبت أن تحضنه حتى جثة هامدة؛ وما رأته أمه منذ ذلك العهد قط. إنَّتبه تيمح -وهو يستمع إلى الحكاية والناس في صمت مطبق وغفلة، إلى درجة تدفق الدموع تنساب من عيونهم وعينيهِ، كانت شلالا على وديان أبت مياهها أن تجف إشفاقا على ذلك الطفل البطل كما تم تصويره من خلال تلك الكلمات البسيطة. ما كان شيء أشد وطأة على نفس تيمح في موقف ذلك الصبي أكثر من صورته بين يدي أمه وهي تساعد على ركوب فرس أبيه؛ وهي تقذف به إلى جحيم الموت المخيف، بدا ضئيل الجسم على تلك الدابة وهي تنقله بسرعة إلى حافة الهلاك ، ليلحق بأبيه،

فيغنيا معا نشيد السلام
الأبدي في الجنة. ودعته
أمه، وهي تمد يدها إليه من
وقع ألم الفراق؛ حتما لم يطب
لها فراقه. كان الحلايقي يكرر



الحكاية للسامعين دون ملل.... تعددت المواضيع
والصور التي نقلها الحلايقي للناس في حلقاته. كان
تيمح يفهم أن البحث عن رغيف الخبز، هو ما كان
يدفعه إلى اختلاق الأحداث والتفنن في عرضها، كانت
بمثابة حرفة تكسبه قوت يومه. من أجل ذلك،
يستقدم صاحب الحلقة طفلين؛ يلبسان قفازات
كبيرة لا تتلاءم ومقاس أيديهما؛ يرتديان سروالين لا
يتجاوزان ركبتيهما، ثم يأمرهما بملاكمة بعضهما
البعض أمام الجمهور. ينهالان ضربا على
بعضهما، يتظاهر أحدهما بالسقوط، فيتألم و
يصرخ؛ ثم يقوم بحركة بهلوانية يهب من خلالها
للإنتقام من غريمه، حركة يضحك على وقعها
الحاضرون، تميل جسومهم لدرجة السقوط؛ بينما
يقوم صاحب الحلقة بالطواف حول الأرضية يجمع
ما تجود به جيوبهم جراء هذا المشهد الساخر....
غنى أحدهم سرقة دراجته الهوائية رثاء، فغنى معه
الذين حضروا قصة تلك المأساة مواساةً، تناقلت
الخبر أفواههم فغناه الناس من بعدهم لعقود في كل
واد. حكوا أيضا عما أصاب السارق من سوء بعد ذلك
الغناء "كانت أبواب السماء مفتوحة عندما دعا عليه
،لقد كسر الله ساقه" يقول الناس في كل ناد وعلى مر
السنين". كانت حكاية لافتة، تثير أسئلة كثيرة

،أسئلة صعبة ،أسئلة ميتافيزيقية ،قليلون هم من يستوعبون كُنْهَها.... لقد حجز لنفسه مكانا في ذلك الموضوع وفي قلوب الآلاف أيضا. كان للسحرة وقراء الطالع "الشوافون أو العرافون" مكان أيضا في تلك الساحات عشية كل سبت . لم يكن تيمح يثق في شعوذتهم ودجلهم، لكنه كان يستمتع بما يأتون لدرجة الحيرة، بل التصديق .كانوا يقومون بحركات تسلب العقل تركيزه. يزداد استغرابه والساحر يردد : "الله يُعزُّ الطَّلَبَ". "الطَّلَبَ" على ذلك التاريخ، هم حفظة القرآن الكريم "الفقهاء" كما كان يحلو للناس أن يسموهم آنذاك. ظهر التنافر واضحا بين هؤلاء "الطلب" و أولئك السحرة . يخافون أن يفضحوا أعمالهم فيؤلبوا العامة عليهم، ويحرموهم نفائس المكان . رأهم يأتون حركات خفيفة ظريفة سريعة بأيديهم. أوراق تتحول إلى حمام أمام أعين الكل، ماء ينزل من ورق صحيفة، شرائط ثوب تخرج بلا توقف من فم الساحر، نقود معدنية يخرجها في الوقت المناسب من أذنه أو أذن أحد الحاضرين ، أوراق بيضاء يحولها إلى نقود من مختلف الفئات. لم يكن تيمح يفهم كيف يتم ذلك، يبهره ذلك فيتساءل: لماذا لا يصنع هؤلاء ما يكفيهم من نقود ، فتكفيهم ذل وعناء ما يفعلون ؟ لماذا كان الساحر يردد : "الله يعز الطَّلَبَ" ؟ كان سرا يعلمه الساحر وحده، و يعلمه هؤلاء معه. ألم يكن خداعا بصريا من منشط تلك الحلقة فحسب ؟ أم أنه كان سحرا حقيقيا يأتيه ساحر محترف، تتدخل فيه مخلوقات روحانية غير مرئية

تملكها يَمِينُهُ؟.... كانت رؤية الشيطان أو الجان - على زجاج مرآة صغيرة مستديرة، أو على صَحْفَةٍ بها ماء وسط الحلقة أمام ذلك الحشد-كانت تدهشه "رجل غريب من أرض بعيدة ،يعرض على القوم حول حلقتة داخل تلك السوق العامرة ،يعرض عليهم رؤية الجان أو الشيطان نهارا-جِهارا-رجل يتحدى قوانين الظهور والإختفاء، رجل يتحدى مريديه أن يفندوا ما زعم؛ دون خوف ولا ارتباك، ينادي على من يرغب في رؤية الشيطان؛ رؤية الشيطان في السوق؛في وضح النهار !!!كان ذلك تحد يستحق مشقة الحضور ،وعناء المشاهدة...

يدخل الرجل إلى وسط الحلقة ملبيا دعوة الساحر، يسأله هذا الأخير بضع أسئلة تمس دواخله. يستغل استعداداه فيناول له مرآة على ظهرها صورة امرأة شبه عارية، يمسك الشخص بالمرآة جيدا وعيناه لا تفارقان لوحتها الزجاجية ،ثم ،بعد أن يتلو الساحر طلاسـم غامضة ،غير مركبة تركيبا لغويا منطقيا مألوفاً، تتغير أسارير وجه الضحية شيئا فشيئا،علامة على هول وبشاعة ما يرى .ما الذي رآه؟هل رأى شيئا غريبا على تلك المرأة؟ لقد رأى الشيطان .رأى الجني .أصفر وجهه من الهلع، هَمَّ برمي المرأة لولا أن تداركه الساحر بصرخة يحذره : " أمسكُ بها جيدا وإلا ستطير إلى جزيرة الوقواق " لم يكن أحد يفهم معنى هذه الكلمة غير الطلبة المثقفين ،يمسك الرجل بالمرآة وقد بدأت يداه تهتزان رويدا رويدا؛ يتسلمها الساحر ثم يشير إلى الرجل بالعودة إلى مكانه ضمن المتفرجين ،وألا

يغادره لتوه... "بُغَاثُ رَيْتِي تَخْرُجُ" يردد الشخص مخاطبا مَنْ بجانبه "كادت رئي تفارق صدري" يتجاهله الشخص في ازدراء بعد نظرة سريعة بطرف العين، ثم يتابع المشهد أمامه. أحقا رأى الشيطان أو الجني؟ يزداد الإستغراب تفاقما حين يؤكد الضحية أمام الحاضرين صحة ما أخبرهم به الشواف. يزداد التصفيق تعاليا والعطايا على أثر ذلك التأكيد تصاعدا؛ و تزداد الرغبة في إدراك فرصة رؤية الجني تعاظما. لكن الساحر يكتفي بواحد فقط، يترك الآخرين في شوق لا تنطفئ ناره إلا بالحضور مرات كثيرة؛ و شهدوا حلقيته في مستقبل الأيام، تصحبهم دراهم و أوراق نقدية. تكثر عطاياهم، فيستغرق الشواف في جمعها وقتا، قبل أن ينتقل إلى مشهد آخر أكثر إثارة وتأثيرا في النفس وعليها. ذات يوم، أسرع تيمح كعادته يحجز مقعده في إحدى الحلقات؛ كان يكفيه ويكفي كل فرد من الحاضرين درهم واحد، ليكشف الشواف أمامهم ولصاحب الدرهم ما تخبؤه الأيام من نجاح و إخفاق، من خير و شر. يخبره بما يحب وبما يكره. بمن يحب، وبمن سيكون يوما له شريكا في الحياة. درهم واحد فقط، يقدمه أحد المتواجدين حول المكان، فيكسب الشواف ثقة مريديه، و يفرح صاحب الدرهم أعظم السرور، أو يترج حزنا بيّنا، يرتاح ويسعد ويطمئن، أو على العكس يتعب ويشقى ويخاف ويعاني أنينا، وهو على سكة انتظار ما سيتحقق له أو ضده من رؤيا العراف التي رآها في تلك المساءات العابرة؛ كثيرون على سور الحلقة السميكة-بتلك الأجساد المترابطة

المتدافعة-هم مَنْ جلبوا درهمهم. تشرَّب أعناقهم لتكتشف أسرار ذلك المساء. الجميع كانوا يرغبون في تقديم الدرهم فيكشف العراف بفضلته مصيرهم.الجميع يحلمون بفأل حسن لطالعهم.كان تيمح يحمل درهما هو أيضا، يرغب في ما كان يرغبه الآخرون .لكن الحياء يمنعه أن يظهر أمام هؤلاء الخلق الغافلين المغفلين؛ ما كان أقلهم غفلة ،بل ربما أكثرهم حياء. على الجانب البعيد هناك من تلك الحلقة التي صارت تتسع وتتسع ،رأى إحدى زميلاته من التلميذات وقد قدمت للعراف درهمها ؛ أخبرها مقابل المائة سنتيم بفرحة تحل بدارها "يتعلق ما نويته بدراستك ،ستفرحين"ثم دفعها دفعا خفيفا إلى الصف ولم تلبث فيه من غببتها بما سمعت.ومضت الأيام ؛لتظهر نتيجة ما تنبأ به الشواف: فوز بالشهادة الكبيرة. منذئذ،أصبح ذلك الحدث مَقْلَقَةً لروحه ووجدانه ، وحافزا على طرح المزيد من الأسئلة، ومن بينها ذلك السؤال الصعب: " كيف عرف العراف بنجاحها؟ هل علم فعلا بنجاحها، أم أن ذلك جاء صدفة ،وفي سياق طبيعي لما كان سيكون؟

كانت إبرة الخياطة خصما عنيدا تطارد العرافين أينما حلت حلقاتهم أو ارتحلت. كثيرا ما يظهر العراف غاضبا وهو في قمة انشغاله بما يقدم ؛لا يخفي غضبه عن كل عين ترمق حركاته على تلك الأرضية .على عكس ما كان يقوله عن "الطَّلَبَ"، كان يوجه انتقاذا لاذعا لمن يحاول إفساد عمله ويقطع رزقه."عيب عليكم ما تفعلونه بي ،هل تحبون أن

يموت أولادي جوعا ، والله لن أسامحكم؟" كان يُلمح للحاضرين، وهو لا يعني سوى البعض منهم، ممن قد تكون في جيوبهم إبر للخياطة ،يجلبونها عمدا لإبطال عمله من السحر كما يبدو لهم الأمر ولا يخفى عنه. كان يفهم ذلك من خلال غمزهم ولمزهم. وضحت خشيته منهم على محياه لكل عين مبصرة، وقلب حساس. يقول في أدب "لقد جئت أسعى لكسب رزقي في مدينتكم العامرة؛ يا أهل الخير والنخوة والمروءة؛ أنا ضيف الله وضيفكم". يخاطب فيهم روح الإنتماء للقبيلة؛ "يا أبناء القبيلة الكبيرة الشماء الكريمة حسبا ونسبا ومحتدا، أنا ضيف الله وضيفكم". يخبرهم أيضا أن لديه أبناء أكثر، وأن والدته أو زوجته طريحة الفراش من مرض عضال، وأنه مدين لفلان وفلان ولاآخرين لا يعلم عددهم إلا الله، وأنه ما جاء ليضر بأحد. "أنا لم آت لأسرقكم " كان يخاطبهم برفق يستميل عاطفتهم؛ لكن بغصة شديدة ...

إبرة بيضاء دقيقة ، في ثقبها-سمها- ما يمكن أن يقلب الحلقة على الشواف رأسا على عقب ؛أن يعرضه لسخرية الحاضرين. سيفقد مكانته في نفوسهم، و مكانه في الساحة إلى الأبد. عجا! صراع بين إبرة وآدمي؟ .بين إنسان وجماد؟ بين عاقل ومادة لا روح فيها؟ نعم؛ إبرة-مسكونة- تتصرف عن بُعد، لها ناموس أكثر غرابة من كل النواميس المعروفة... ما الذي كان يخاطبه هذا وذلك من السحرة والعرافين في هؤلاء الناس إن لم تكن عواطفهم. كان "الطلب" وحملة الإبر يفهمون

صاحب الحلقة فيهمسون بنبرة حادة قليلا : "خدم على راسك ، مَا عَلَيْكَ وَالْو". يطمئنونه، ثم ينصرفون محركي رؤوسهم مستائين، تَعْلُو ثغورهم ابتسامات صفراء شامتة؛ كان العراف يتبعهم بعينين ثاقبتين حتى يختفوا عن الأنظار؛ يعود الى حلقتة مرتاح البال من خطر داهمه فجأة.

كان هؤلاء عونا للعراف على أولئك الأبرياء-كانوا أبرياء حقا، أبرياء حين انطلت عليهم حيلة الساحر، وبهرتهم حركاته، وسلبت لُبَّهم أَلَاعِيْبُهُ؛ أبرياء حين دفعتهم عواطفهم إلى الوثوق بالشواف، أبرياء لما هبوا يملؤون خزائن جيوبه من أمواهم. ظهروا حجر عثرة أمام إدراك تيمح لما يدور هناك؛ رأهم ينسحبون بسلام؛ ينسحبون فخورين؛ كأنهم أنجزوا مهمة مستحيلة. ظنوا أنهم ملكوا مقاليد المكان بما فيه ومن عليه بإبرهم العجيبة. يتحكمون بواسطة تلك الأدوات البسيطة في عقول زوار الحلقة؛ في حركة الحلاقيين، في مكانتهم، في رزقهم. أصحاب الإبر، يشبهون هؤلاء السحرة، لكنهم يعملون خارج الحلقة، يكرسون وضعية التخلف لدى الناس عليها، تماما كما يفعل هؤلاء الدجالون. صاروا بدورهم أقطابا للميثولوجيا السائدة، اللصيقة بالألباب والافئدة هناك.

أصبح المجتمع امام عيني تيمح يعج بالمظاهر الموحية باتساع دائرة الاساطير، وتمكن الخرافة من النفوس. يغزو المشعوذون الناس في عقر عقولهم بلا رحمة ولا عناء. يسلكون إليها كل سبيل، ينفذون

من كل باب ونافذة، يوظفون كل شيء حتى يقتحموها ويعثوا فيها إفسادا وتخريبا. يستوي عندهم جنس ضحاياهم أو سنهم أو مستوى معيشتهم. كم خاف تيمح على أبنائه وبناته مكر هؤلاء السحرة والعرافين وأصحاب الحلقات. لذلك، لم يأل جهدا في تسليحهم بالعلم، و تربيهم على أعمال العقل أمام ذلك العدو الظاهر الخفي المتربص بهم في كل حين ومكان، عدو تصيب مخالفه الفتاكة القلب موطن العاطفة، وتصيب العقل مركز التفكير والتمييز؛ عضوان إن استسلما لتلك العاطفة، وسمحا لها بتوجيه منطقيهما، دخل الداء إلى البدن؛ فيعتل ويسقم ويخضع، ويسهل ترويضه، ثم يستجيب لكل الأوامر. يسقم البدن بسبب السموم التي توضع في الأحرز، فتحرق ليشتم الضحية رائحتها؛ أو على حواف زليقات فخارية أمام باب السوق، 'تمسح' بالماء فتشربها الضحية؛ عمل من تدير صديق حاسد، إن أحس تفوقا عليه في التجارة أو الدراسة أو في علاقة عاطفية مع إحداهن. قد يُدبّر للزوج من زوجته، إن استشعرت أحاسيسه تجاهها تنحرف نحو أخرى أصغر أو أجمل منها. تجعل الطلاسّم التي مدادها السموم، تجعل العقل يستسلم، يخضع، ويفقد السيطرة، يدق أبواب أعضاء الجسم فلا تستجيب لأوامره. يؤول إلى هذه الحال بعدما يصيبه الضّعف. تُدمّر الخلايا فيه وتتلّف، أو تُخذر بفعل مركبات الأعشاب الغريبة التي يكون موطنها الجبال البعيدة و الصحاري الموحشة. نباتات يجلبها المغامرون إلى هذه

المناطق، يصطادون الأفاعي والثعابين السامة ؛
يقنصون الحيوانات الضارية، والسحالي الغريبة
؛ يقطعون ذيولها وبعضها من أعضاء جسمها
، فيبيعوها بأعلى الأثمان لمن يحتاجها، وهم كُثُرٌ
معروفون .أو يلجؤون الى أعضاء من في المقابر.

لم يغب عن ذهن تيمح أن السحرة يستخدمون بقايا
من أعضاء جسم الإنسان ،أو أجسام الحيوانات حتى
يكونَ التأثير على ضحاياهم أقوى مفعولا وأشد
وقعا. يشترون "مخ الضبع"؛ قد يبعثون من يحفر
قبرا بعينه فيستخرجون منه "يد ميت" رجلا كان أو
امرأة ،أو من الصبيان حديثي الولادة، وذلك في
اعتقادهم أنفع. هذا ما سمعهم يرددون في أكثر من
محفل. يقطعون أذنان الحيوانات ،ذئبا كان أو ثعلبا
أو ضبا أو غيرها ،يبحثون عمن يجلب لهم بيض
الأفاعي القاتلة، والثعابين الفتاكة سمومها ؛لا
يفوتهم كذلك استعمال جلود الفئران، يركزون
أساسا على الشعر منه، و يسمونه في لغة السحر: "
زغب الفأر" يستعملونه لتحقيق الأثر البالغ الذي
يرجوه طالب العمل مقابل مال أو ذهب أو أشياء
ثمينة أخرى يتخلى عنها طوعا أو كرهاً ،وهو يخطط
بمكر للإيقاع بمن يكره .لكل مناسبة عمل، ولكل
عمل ما يناسبه من هذه المجلوبات النفيسة. وبقدر
الأثر يكون الأجر .

رأى أثر هذه الأعمال واضحا على الكثيرين وهو
صغير. وفي شابه ،لم يصعب عليه فهم ما عاناه
الكثيرون من شر أعمال هؤلاء الدجالين. كم اعتل

أمام عينيه من رجل أحمر الخدين، كان من قبل قامة طويلة عريضة قوية من الشحم واللحم والعظام الصلبة. كم جُنَّت من امرأة، كم من شابة في مقتبل العمر ضاعت حين أريد إخضاعها قسرا وغصبا؛ كم من شاب بريء ضل طريق مستقبله غيلة، وضل طريق الفضيلة والصواب انتقاما. و كم تفشى الطلاق في ذلك المجتمع الصغير، يشتت الشمل بعد لَمَّةٍ، تُنزع المودة من قلوب المتحابين، يشرد الأطفال بعد أن حماهم كنف الزواج لسنين. ورآه أيضا وهو كبير في بيوت بعض الأسر؛ حيث النسوة بها يتمسكن ببركات المشعوذين إيمانا، وبدجلهم يقينا. لم ينس أبدا هؤلاء النسوة اللاتي قُذِنَ حركة السحر و الشعوذة في المدينة التي نشأ فيها وترعرع؛ كن ثلاثا عُرِفْنَ بأسماء مميزة-أم جام وأم بخت وأم شُهْب- تحج إليهن النساء من كل الطبقات، وحتى الرجال. سلبن عواطفهن وعقولهم لعود. كانت بيوتهن عيادات خاصة للشعوذة أم الرذائل. لم تخف عليه أفعالهن. رآهن من قريب، شاهد أعمالهن الخارقة والرديئة اثناء انعقاد جلسات الشعوذة وهو صغير.

لم تغب عن ذهنه أفعال الدجالين ممن ارتادوا أسواق المدينة وساحاتها؛ كانت كثرة المتسوقين تمنحهم فرصة فريدة "ليضربوا ضربتهم" في جمع مبالغ مهمة في زمن وجيز-فترة الصباح فقط-من جيوب رجال ونسوة تدفعهم عاطفتهم إلى البذل السخي مقابل الحصول على حرز يحقق مبتغى في حياتهم: يرفع عنهم ضرا، يبعد شرا؛ يقيهم عين

حاسد اذا حسدهم؛ يُقَرَّب بعيدا؛ او يحققون
بواسطته عرضا من أعراض الدنيا: زوجة، او وظيفة
، او حظا سعيدا...--- ثم يكمل صاحب الحلقة جمع
ما ينقص خلال فترة المساء في ساحات المدينة
المشهوره. لا شك ان ما كان ينقص هؤلاء
المتحلقين المساكين حول هذه الحلقيات هو
الفطنة ،هو الوعي. هكذا سمع الشاب تيمح
المثقفين من اهل البلدة يرددون كلما نُصبت
للحلقية خيمة فُرِشَتْ نصبا واحتيالا. لكن، حسب
مشاهداته، كانت الحلقة تغص بكثير ممن يعتبرون
انفسهم متعلمين، مثقفين، واعين، فطنين، من الطلبة
والمدرسين والموظفين على اختلاف مراتبهم
ومواقعهم ؛ بل وحتى من رجال الدين أنفسهم ،ممن
لا يحبذ بعض الشوافين رؤيتهم هناك ،بل حتى من
أصحاب الابر الصغيرة ،رأهم يستمتعون بما يقدم
لهم .يصفقون، يضحكون، تفتح أفواههم كغيرهم
إعجابا وتعجبا من موقف ما؛ يقدمون هم أيضا
نصيبا من مالهم لصاحب العرض. يقدمونه على
مرأى ومسمع من الحاضرين .

كم خشي ان يستسلم ابناءه وبناته لدجل هؤلاء رغم
تعلمهم ووعيهم كما استسلم هؤلاء. عزم جدا على
غرس قيم الدفاع تلك فيهم ؛يسقيها رعاية فتكون
شجرة أغصانها مصابيح علم وفطنة، ثم تنير طريق
حياتهم في هذه الدنيا الواسعة المتبدلة .

استوقفه في خضم ذلك الخوف على أسرته، موقف
قردين ، كان الحلائيقي يطلق على أحدهما "لْمَسِيْحُ"

والآخر "حيط باي باي". تجلت غرابة الموقف في درجة خضوعهما لصاحبهما، في انقيادهما الاعمى لأوامره؛ هكذا تفعل الطلاس من هاجمت عقله و سكنت بدنه. يُربط القردان الى سلسلتين معدنيتين رقيقتين متوسطتي الطول، ترتبطان بحلقة رقيقة مستديرة تحيط بعنق الحيوانين. كان الحلايقي يأمرهما وهو يمسك بطرفي السلسلتين. كان القردان واثقين من تنفيذ ما يؤمران به بحكم ذلك الرباط المعدني الصلب المؤثر كثقة صاحبهما بقوة ومثانة وفعالية ما يمسكهما به. يستجيب القردان، ينفذان الأوامر. لكن ذلك لا يعود عليهما ثناء ولا شكرا بعد امتاعهما للجمهور، بل على العكس من ذلك، فهما يتعرضان للسخرية امام الملاء؛ ينعتهما الحلايقي بأقبح النعوت، نعوت لن يقبلها لو كان بهما عقل، يركلهما في احتقار. كذلك كان يُفعلُ بمن به مسٌّ من السحرة. كان عجبه يزداد كلما نظر الى هذين القردين. يتأملهما ملياً؛ يرمق بعين ثاقبة جسميهما وحركاتهما. يقارن ذلك بما درسه عن - دارون- ونظريته في التطور. كانت درجة تشابههما والانسان ضعيفة، عدا في درجة الانقياد والاستسلام الاعمى امام ظواهر معينة؛ ربما كانت السلسلتان رمزا لها، و أبرزها، الظواهر الميثولوجية التي حكمت المجتمع وشوهت العقيدة. مثل هذين، كانت النساء يأملن ان يكون أزواجهن. ان يحولنهم الى شبه قرده مرودة. لا تستجيب الا لآلة تحكمهن. آلة عاطفة الرقة التي يعمدن الى توظيفها وهن على سكة تثبيت علاقة الحب؛ او آلة عاطفة الغيرة

الطاحنة التي يوظفن رحاها بشكل عنيف متى
هُدِّدَتْ هذه العلاقة.

عرف رجالا سقمت أبدانهم، ضاعت عقولهم، دمرت
بيوتهم، بل منهم من فقد حياته نتيجة اعمال
نسائهم والشوافين. تاركين أبناء وبنات في حضان
اليتيم او التشرد والفاقة يرزحون. تناقلت ألسنة
الناس عذاباتهم لزمان في مدينته الصغيرة الوديعة
.كانت الودائع من تلك الاعمال في عقله ثقيلة
مفعمة بالخوف مما مثلته "حوراء" على درب
الرديلة في عقول المتزوجين من الرجال هناك.
سلبت حريتهم في التمييز بين الفضيلة والرديلة، بين
ما هو حق لهم وما هو باطل محرم، بين فراش
الزوجية الطاهر وبين علاقات الشارع العابرة
الوسخة. سلبتهم الضمير. أصبحوا يبحثون عنها
باشتياق، يسألون عنها وعن أراضيتها بلا حياء ولا
استحياء. فتحت من ارزاق أسرهم لجيبها الخاص
حسابا تستنزفهم. كان يفهم ايضا مقدار ما استنزفت
"أم جام" جيوب النساء بأعداد غفيرة في الساعات
الأولى من كل صباح بمهرازها المعدني و الحناء
،وبقطع من معدن الرصاص، تصهره على ملعقة
كبيرة الحجم امام انظار ضحاياها في غرفتها شبه
المظلمة. تخبرهن عما دُبّر لكل واحدة منهن من
سحر؛ فيهجرهن ازواجهن، يفارقوهن او يتزوجوا
عليهن. كن يثقن في العرافة . كان المعدن يتخذ
اشكالا مختلفة عند ملامسة الماء ،و كانت تلك
الاشكال مفاتيح لعقول زبوناتنا نحو عالم الغباء
والتجهيل. كانت أرقاما تفك بها شفرات

جيوبهن، تفتح اقفالها في وجه المزيد من العطايا .
ازدادت مفكرته ثقلا بما حدث ل"جابر" و " باقادر
"؛ كانا من أبناء مدينته، في غفلة منهما ومن الزمن
، مات الأول سقيما. نحل بدنه وهزل. ترنح على اثره
ثم تهاوى وسقط في حوض الردى صريعا. شهيد
الرديلة ؛ مات ""باقادر"" مخبولا . لا يدري إن كان
قد ترك اولادا ام عاش على ظهر البسيطة فردا . لقد
ترك اولادا وبنات، تركهم للحياة، تتقاذفهم رياح
الضبياع في كل اتجاه لولا عناية الله تعالى . بدت
الأفكار في عقل تيمح تتلاطم وتتصادم أكثر فاكث
نصدام جلاميد يدفعها السيل الهادر من اعلى التلال
المنحدرة بقصة حب لم يكتب لها النجاح؛ شهد
تفاصيلها. مرت احداثها امام عينيه. ما عطل قطارها
وأفشلها غير عمل السحرة، ودجل الشوافات وعين
الحساد. ردد الاهل والجيران ذلك في كل وقت وفي
كل ملقى يجمعهم. "وُضع لهما عمل" يقول
احدهم "اصابهما سحر ساحر حتى افترقا بتلك
الطريقة " تضيف احدى القريبات"هذه عين
اصابتها"يردد ثالث متأسفا. هذا ما اتفق عليه
اغلب الناس كسبب لمأساة الشابين؛ "يجب ان يلجأ
الى عراف ما حتى يفك ما لحق بنفسيهما من سحر"
توكل "يفترض احدهم. قد يكون من يلجؤون الى
طلب مساعدته، هو نفس العراف الذي "ثَقَّفَ
"الشابين. لم يلتفت احدهما الى الآخر ابداء. زعم
الناس أن الجن الذين يسخرهم العراف، عجزوا عن
ايجاد الحرز المعلوم؛ أن الطلاسم الموضوعه به
معقدة جدا. أجمع الجميع بثقة أن ذلك الذي حدث

هو من فعل ساحر متخصص متمرس لا يُشق
لسحره غبار.

حضر تيمح جلسات الدجال صاحب "الحصوات
السبع" حضرها يقينا. شاهد بأَم العين كل شيء. فهم
كثيرا من طرق المكر التي اعتمدها للإيقاع بزبوناتهِ،
مستميلا عاطفتهن بعد ان غيب عقولهن. سبع
حصوات مختلفة ألوانها متناسقة الشكل، يتلاعب
بها بشكل غريب احدى يديه. تتناوبها راحة الكف
وظهرها. ترسلها الى اعلى ثم تتلقفها بسرعة وخفة.
ينفث عليها قليلا من لعاب من فمه. تحيط بها
أصابعه. تضمها لراحة يده ضما قويا. سبع حصوات
وشريط ثوب ابيض. يشترط العراف ان تدوم
جلسات العلاج بها سبعة أيام متتالية. يشترط
مقابلة الضحية بعد عصر كل يوم. سبع حصوات
يختارها العراف بنفسه. بحسب نوع الداء الذي
يتنازع جسدها. كان يصرح بهذا امام الحاضرين من
أقارب المريضة. لا يحق لغيره جلبها؛ فهو وحده
من يعرف من يسكن كل واحدة من أرواح. هي
حصوات مسكونة بلاشك. قد يكون سكانها ارواحا
شريرة، تغضب لأتفه الأسباب. كان على أهل
المريضة القيام بواجبات المأكل والمشرب خلال
تلك الأيام السبعة. كان يتحصل أجره مبالغ مهمة
بعد كل جلسة. يتقاضاها مسبقا. يخاف ان يُكشَف
مكره وهو في منتصف طريق الدجل، فيذهب تديره
جفاء، وجهده هباء. تبدو الحصوات ملساء. ألوانها
بين أسود حالك وأبيض ناصع، ورمادي يميل الى
الزرقة عند بعضها. ذات أحجام متناسبة في الصغر

مخيفة. تقع صلبة على ظهر كف العراف الطويلة ذي التجاعيد البائنة. كانت مخيفة في تناسق حركتها و حركات الأصابع. توضع الحصوات في قطعة قماش طويلة شفافة بيضاء او رمادية او حمراء؛ تبعا لنوع العلاج المراد لكل زيونة. يتم ربط الحصوات في شكل عقد مضغوطة. يتدرج العراف في تشديد الرباط بين الأولى والسابعة تدريجا تزايديا وهو يتلفظ بكلمات مبهمة مبني ومعنى. كلما عقد عقدة، بدا لوجه المرأة على اثر ذلك تجهما وانقباضا من وقع ذلك الشد، وذلك الاتصال الخفي بينه وبين من يسكن الحصوات والحبل؛ تصدر المرأة من أعماقها أنينا وتألما وزفيرا شديدا. يتوافق ذلك كله مع ما يُرسم على شفاهه من تلك الكلمات عديمة الدلالة؛ لا قيمة لغوية تستشف من تركيبها. تقف المرأة أمام صاحب الحصوات السبع مصغية مستسلمة. كأنها تفهم كل شيء مما يتمم. كان تيمح يشك في فهمها لذلك. لكنه ظل مقتنعا بادراكها لما يقول ويفعل. رآه يسألها. لا، بل يخبرها، فتتحدث اليه موافقة. تقبل ما يحدثها به وتقر بصحته. يجذب اليه قطعة القماش جذبا-وقد سيّرها حبالا-تجذبها الضحية اليها كل الجذب أيضا كأنهما طفلين يلعبان لعبة الحبل في الزقاق المجاور. بقدر ما تنضغط العقدة على الحبل من اثر الشد ، تتبدل اساور وجه المرأة ويزداد اضطرابها. ماذا يوجد هناك؟ ما السر الكامن بينهما حتى ينسجما كل الانسجام وهو غريب عنها وهي كذلك بالنسبة له؟.يقدم لها بذور بعض النباتات- خَرَوْعٌ وَقُرْبُرٌ وَقُجْلٌ-ثم يأمرها بمضغها ووضعها على

مكان الألم بجسمها، فتفعل..... ما الذي كان يدفعها الى ذلك؟ ما الذي اقنعها بتقبُّل ذلك طواعية؟ أكانت ترى ما لم يكن يبدو لمن حولها من اقاربها الاقربين؟ تنفتح اسارير وجهها بعد انقباض شديد يدوم وقتا وهي تنظر الى الحصوات، ثم، تعبر عن راحة غمرت جسدها، وسعادة ملأت روحها بعد انتهاء تلك الجلسة. سبع حصوات وخمسة أصابع طويلة كطول قامة صاحبها- على يد، تدل حال جلدها على تقدم كبير في العمر- وكلمات لا تنتمي لأي لغة، كانت كفيلا بإحداث التغيير في النفس وفي الجسد. تغيير جدي بائن. كانت تلك كافية لإقناع الضحية "مباركة" بعدم جدوى أي طبِّ لطبيب ولا لدوائه؛ بل الجدوى كل الجدوى لما يصفه صاحب الحصوات السبع من عقاقير، ويعقد من عقد، ويأمر ان يقام من طقوس. كان يحصد مقابل ذلك أموالا طائلة بلا اعتراض، لا من المرأة ولا من زوجها. كانت رغبة زوجها جامحة في سبيل تخليصها من وسواس خناس يقض نومها ونومه، ويذهب بعقلها بعيدا نحو عوالم الخوف والشك؛ وسواس يُسقم بدنها لدرجة الهزال. يخبل عقلها المخبول لمستوى الجنون. لماذا اوصاها العراف ان تحذر ساعة من ساعات يوم الثلاثاء؟ لماذا أصبحت المرأة مهووسة بتلمس تلك الساعة بين ساعات النهار وليس ساعات الليل، وتحذر منها كل افراد اسرتها وزوجا وأبناء؟ أكان العراف صاحب الحصوات السبع يريد ان يعالجها نفسانيا كما يفعل احدث الاطباء النفسانيين، بجعلها تنشغل عن وسواسها بتلمس تلك الساعة طيلة

النهار؟ ام ان وجود تلك الساعة بتلك المواصفات امر لا شك فيه. وتسكنها أرواح يحاطبها وتخاطبه؟ أي ساعة من ساعات النهار هي؟ اتكون عند الصباح؟ ام بين ساعات المساء التي يغشيها الزوال رويدا رويدا؟ ما الذي كان يحكم تلك الساعة ان كان الامر حقيقة؟ جن ام شياطين ام قوى أخرى غير معروفة بعد؟ ساعة من ساعات نهار الثلاثاء تدعو للحدز؟

لماذا أصيب الفتى "ياياش" وهو في غرة شبابه، حين فقد التحكم في عقله وصار يهدي و يرى من المخلوقات العجيبة الغريبة ما لا يراه غيره؟ هل ادركه خطأ ما في إحدى ساعات يوم الثلاثاء؟ اكان تجاهله لتحذير العراف سببا فيما جرى؟ لقد كانت احداث قصته طويلة أليمة لافتة لكل نظر. قصة امتدت لأزيد من ثلاثين سنة. ما قصته في مكان التقاضي والناس جلوس ينتظرون الحكم عليه ؟ " رأيت طيفين على كتفيه يقفان ، ربما اخبراه بشيء فاصدر حكمه ببراءتي" يقول الشاب ياياش وهو يغادر المحكمة منتصرا. كان مظلوما حقا . لكن الحجة في تثبيت الظلم عليه خانتة يومها . ما الذي رآه الفتى على كتفي القاضي بالضبط؟ احقا همست تلك المخلوقات للقاضي شيئا فبرأه؟

هل اخطأ الفتى "حسني" في ساعة من ساعات النهار لاحد أيام الثلاثاء حتى يصاب؟ لماذا يصاب الفتى "حسني" بمثل ما أصيب به الفتى "ياياش" وتدوم قصته عبر الزمن طويلة مؤلمة

تتناقلها الالسن العطوفة والشامته على السواء؟ يظل واقفا طول النهار، يمنعه الذي بداخله من الجلوس من كان بداخله يا ترى فيتحكم هكذا في حركاته وسكناته؟

لماذا استعصى على اكثر العرافين حنكة التغلب على ما أصاب المرأة فطومة من مس؟ قالها احد هؤلاء صراحة وهو يصرف ابنها: "دعني، لا اريد ان اوصل علاج امك، لم اعد استطيع ذلك؛ فما يسكنها اقوى من علمي ومن سحري، انهم بهددونني، ألا تفهم انهم يهددونني "من هم يا ترى؟ من يهدده؟ كيف يتم تعامل عراف آخر اشد بأسا على الجن بنفس العجز والخوف امام ما كان يسكن "ياياش" من قوى خارقة؟" لن اعود الى ذلك المنزل ابداء، تدبروا امر ابنكم، ان ما به اقوى مما اعلم، انهم يهددونني" يقول العراف في هلع. من يقصد بالضمير "هم"؟ هل يراهم؟ كل ذلك مر امام عيني تيمح بطيئا يسابق سنوات العمر المسرعة. هل سيتمكن الدجالون من اقتناص احد أبنائه او بناته، فيبدو سحرهم أبرع من طب الطبيب، وأهم من علم المعلم، واجدر في التفكير من بناء مستقبل يأمنون فيه مكر الدجل؟ بات هذا السؤال يقلقه لسنين. يخاف ان تكون الإجابة عليه موجبة.

ظل القران الكريم يُتلا على قارعات الطريق، و قرب أبواب السوق الجماعي لتلك المدينة الصغيرة النامية الغامضة كل أسبوع. صارت "الزليفات" على وجه التحديد -صارت رفيقة تلك التلاوات على مر

الأيام هناك .يملاً العراف حوافها الداخلية كتابة
بمداد اسود او بني اللون.لم تكن الكتابة حروفا ،ولا
كلمات من كتاب الله تعالى ،لكنها كانت خطوطا
ونقطا ودوائر داخل جداول مرسومة بلا قواعد
هندسية. ربما استغل ذلك الأعمى تلك التلاوات
لجذب أصحاب العواطف ،خصوصا من النساء ومن
الرجال ايضا.يخاطب فيهم ايمانهم الصادق ،و
حبهم لكتاب الله تعالى .تقودهم عاطفتهم الى
سماع الآيات بالصوت الناعم لذلك الضيرير
العجيب- كان حافظا.اقبلوا عليه أيضا بسبب
عاهته. أكان الساحر ضيريرا حقا؟يعتقد تيمح جازما
أن خلف تلك النظارات السود ،عيونا مبصرة
خداعة. بدا عجبه دون حدود تحده. يندفع نحوه
الرجال تدافعا ،يحل مشاكلهم مع بعضهم، مع
زوجاتهم ،او مع من يحبون او يكرهون. بنفس لهفة
الرجال ،أمست النسوة يقبلن عليه اقبال الغريق على
القش؛ يلجأن الى سحره للإيقاع بأزواج صديقاتهن،
يستملنهم اليهن حسدا ؛ من رفاه يعشنه دونهن ،او
بسبب عشق وليد يفتحن به للرديلة ابوابا بلا اقفال؛
قد يوقعن بأزواجهن انتقاما منهن إذا تقلب مزاج
عاطفتهم تجاههن .رأى الكثيرات والكثيرين يجلسون
الى مثل هؤلاء الحفظة المزعومين.ظهرت بعض
قطع نقذيه من المعدن تستلقي منتظرة اخريات على
ثوب افترش الأرض .تتمسك به قدما الاعمى في ثبات
لا تفلته .كان على جسد الرجل جلاباب من صوف
يأخذ لونا البن. وفوق الجلاباب وضع سلهاما أبيض
تدلت حوافه حتى غطت ركبتيه.كان يلف رأسه

بعمامة بالية بيضاء رثة المظهر. ينتعل نعلين أصاب
الاهتراء جزءا كبيرا من جلدهما. تختفي عيناه خلف
نظارتين أنيقتين كأنهما الظُّلْمَة. على جانب من
وجهه طلاء من برص يزحف بطيئا الى بقية الوجه.
أبصر تيمح احد الجالسين اليه يلتفت يمنا ويسرة.
يرمق بعين ثاقبة لئيمة كل القادمين الى السوق او
المتدققين خارجه. يحذر ان يفضح احدهم تواجده
بين يدي ذلك العراف. يخشى ان يُسأل عما يفعله
هناك فيسخر منه المارون ، ويتهموه بتدبير "عمل"
لاحدهم او لإحداهن. ينتابه الخوف ان يتم تناقل
اخباره بين دور المدينة، فيصل الخبر الى زوجته
وابناءه، فيفتضح امره وتنشب معركة سلاحها
الألسُن والكلماتُ، ثم تتشتت الاسرة على وقعها
ويتشرد الأبناء.

تنشط حركة يد الاعمى في كتابة الحرز دون توقُّف
عن التلاوة. يهمس بكلمات بعيدة تماما عن سياق ما
يقرأ من آيات. يلتفت الزبون الى كل اتجاه ولسان
حاله يقول للأعمى: " اسرع، اسرع ؛ لا اريد ان يراني
احدهم او احداهن هنا " يجتهد العراف ولسان
حاله يقول: " اين المال؟ ضع النقود على الثوب أولا
فأستمعَ بقطقتها ان كانت معدنية ". ينطلق
الزبون مسرعا وقد أدى ثمن ما أخذ. لكن، ما يقدمه
الزبون غالبا ما تكون أوراقا نقدية سميئة وثمانية،
تلج جيب الاعمى سريعة خوفا من عين قد ترميها
بسهم الحسد السام ، فينقص رزقه من ذلك
المكان. لا يغادر الاعمى تلك الأرضية ، ولا تنقطع
تلاوته للقرآن الكريم الا وقد فرغت السوق تماما.

يُمسِّط المكان بسمعیه ،او ربما بناظریه من خلف
تلك القطع الزجاجية السوداء المخادعة، حتى اذا
انقطعت الأصوات تماما، وغابت عن عينيه صور
الشخوص ،حمل ما جمعه من النقد ثم وضعه في
سرة يربطها بخيط رفيع بعقد متينة، ليلقي بها أخيرا
داخل جيب خلف جلاببه، ينصرف بعدها الى بيته،
لِيَبْنِيَّ حَجْرَهُ وَيُعِيلَ بَشْرَهُ؛ في وقت يعود فيه الزبون
الى بيته، يحمل أوراقا وسخة؛ أوراقا قدرة سيدمر
بها عقل وبدن افراد اسرته ،فيهجروه؛وهو يظن ظن
المتيقن الواثق انه يحسن صنعا بنفسه وبهم .انها
غنيمة ذلك اليوم الشاق لكلا الرجلين.بئست
الغنيمة لكليهما.

كانت تلك هي الثقافة السائدة بمدينته على ذلك
الزمان؛ تجلت عقيمة في تصرفات الناس .مغروسة
بجذور من فولاذ في وجدانهم. حفرت عميقا في
عقل تيمح زهو طالب علم لايزال.تطارده صباح
مساء.تستفز مكامن خوفه أينما حل وارتحل
.تجمعه بأناس لا شغل لهم عدا ما يحققه العرافون
والسحرة من بطولات، ويخوضونه من معارك
ضارية الوطيس لتزداد انتشارا. لتُبقي حياة المجتمع
رهينة التخلف.اسير الخضوع لسلطة العاطفة
المذلة المهينة .سيكون أبناءه أطرافا في المعركة لا
محالة ان بقي في تلك المدينة واستقر بها. معركة
ستشعل فتيلها تلك الثقافة بنيرانها الحارقة-
"عرافون وسحرة وأصحاب الحلقات و غيرهم من
الدجالين"-مقابل سلاحهم الوحيد، يتمثل في درجة
وعينهم وما درسوه من علم. ستنتصر عليهم تلك

الثقافة حتى وإن ظلت تتسلل بطيئة. تمشي على مهل بين بيوت المفتوحة عقول ساكنيها لكل الأفكار. تؤازرها العادات والتقاليد التي لا تبلى ولا ينحني لها. ظهر امام كل عواصف العلم وأمواج بحار الوعي العاتية الهادرة. كانت فترة الدراسة تحمله بعيدا عن المكان لشهور طويلة، لكن دون ان تصرفه عن تلك الثقافة التي أحاطت بعقله خيوط تجلياتها المتعددة. اثناء فترة العطل، كان كثير الاحتكاك باهل مدينته طلبا لمعرفة اخبارهم واحوالهم. يحاول ان يتصفح مواقع أفكارهم وما يخططون فيها لبعضهم البعض وما يمكنون. خلال تلك المدة الوجيزة، كان كثير التنقل بين الازقة والطرقات والشوارع العريضة غير المعبدة انذاك. ومع حركته الدؤوبة هذه، كانت تزداد صداقاته ولقاءاته بالشباب من أقرانه، بل و حتى بالشيب الذين كانوا يحبون فيه انفتاحه عليهم، واستجابته لتلبية طلباتهم إن احتاجوا. كان يسترق الكلمات من أفواه العجائز من النساء اللائي كن يزرن بيت أبيه في موعد مع شربة شاي المساء. كن يعقدن اجتماعات في باحة من المنزل تسع عددهن، كأنهن دبلوماسيات يناقشن أحوال العالم. كان يجمعهن إبريق الشاي المنسم بالنعنع. يحلو لهن سرد أحداث حياتهن و حياة أزواجهن، و حياة أخريات لم يكن يعرفهن؛ ربما كن من الجارات البعيدات في الدرب هناك من الحي أو من الاحياء البعيدة هناك في اطراف المدينة. كن يحكين ذلك في حضرة عجائز مجربات قد أكل الدهر على اسنانهن وجلودهن وشرب. يروين عن علاقاتهن

بأزواجهن،بحمواتهن، بكل صغيرة وكبيرة تخص شؤون عائلاتهن.يُخْضَنَ في الحديث مستفيضات عن الذين يرتادون أبواب بيوتهن من العطارين والعرافين والغرباء الذين غالبا ما كانوا ينتحلون شخصيات التسول. كن يذكرن أنواع العقاقير التي تستعملها كل واحدة منهن في منزلها وفقا لرغبة في نفسها وقد ابتاعته ذات يوم من احدهم.كن يتحدثن كثيرا عن " الفاسوخ،عن نبات الحرمل،عن مادة الشب وأم الناس وبسيبيسة وقَعْقَلَّةَ ولسان الطير". متى ذكرت احداهن "البخور الأسود " تعوذت منه الأخریات خوفا ورهبة." هذا البخور يثير ثورة الجن "كما جاء على لسان الكثيرات من زائرات المنزل...وهو في مخبئه بإحدى الغرف يتلصص أخبارهن،و ينتظر مغادرتهن، كثيرا ما سمعن يقسمن بغلاظ الأيمان على الانتقام إن مس شخص ما شعرة من حياتهن الخاصة.قد تحلف إحداهن قائلة:"وحق ستين حزبا ،لقد جربت فلانا و فلانا ،وكان ما وصفوه لي نافعا " أو قد تقول أخرى:"وحق مولا عبقادر،إن عشبة كذا وكذا،او عقارا من العقارات عند العطار قد كان له أثر طيب على صحي، و نفع غيري، و ساهم في قلب سلوك احدهم او إحداهن الى ما كان يراد به أن يصبح ويصير". لايقسمن بالله الا ناذرا الا بقولهن ""أَحَقُّ رَبِّي"" . كثيرا ما وبخته أمه وقد ضبطته يتنصت على اجتماعاتهن المفتوحة على كل أذن ؛ لكن ذلك التوبيخ والتفريع ،لم يثنه أبدا عن إعادة الكرة وإلى مسافات أقرب ليعلم مكرهن وما يخططن

لأزواجهن او لغيرهم. كان يجد ذلك ممتعا مشوقا جدا يذهب الى عالم الحلقة والحلايقي. كان صوتهن يتجاوز الشارع القريب. لم يكن حديثهن يحترم أي ترتيب منطقي؛ لا من حيث مواضيعه ولا من حيث المتدخلات. احيانا كن يتكلمن في نفس الوقت وبنفس نبرة الصوت المرتفعة. كن يعالجن مواضيع غيبية متنوعة تتجاوز العقل البشري. تحدثن عن حتمية حلول الضيوف بمنزل ما اذا غنى (الغلاي) بمطبخه عند الصباح- آنية غلي الماء لإعداد الشاي- . يُصَبَّنْ بالاشمئزاز من هذا الغناء، فهو يعني زيادة العمل، يعني ارهاقهن ما دام هؤلاء الدخلاء بالدار. ومنهن من تفرح لذلك لانه يعني حلول اللحم بمطبخها بعد افتقاده لشهور. كان يحدث فعلا. كان يراه واقعا كلما غنى الغلاي بمنزل أبيه. كانت أمه تبدأ استعدادات استقبالهم وبداية صوت هذه الآنية. كيف تنبأ الغلاي بهذا الامر وهو من الجمادات؟ هل هو مسكون بأرواح تنبؤه بأخبار المستقبل؟ هل جميع مثيلات هذه الآنية مسحورة أو تمارس السحر من تلقاء نفسها في كل البيوت ؟ تحدثن عن حشرة طائرة يسمونها ""جعرانة"" كانت مرتبطة ايما ارتباط بالجديد من الملابس . كانت عضتها لاسعة قوية حارقة ؛ لكن الملابس الجديدة التي تأتي بعد تلك اللسعة كانت ممتعة مريحة للقلب والنفس . كان يحدث ذلك حقا امام عينيه ، كان عليه ان يصدق ذلك .

تحدثت هؤلاء النسوة عن أشياء يرينها في منامهن . ينتظرن تحققها فتتحقق . هذا ما كن يؤكدنه

لبعضهن خلال تلك الاجتماعات الموسعة العجيبة. كن صادقات فيما يدّعين. تحدثن أيضا عن فناجين الشاي" يحضر الضيوف إن جرت وسط صينية الشاي" تقول أكثرهن خبرة "إن تحرك كأس منها، حضر ضيف واحد؛ وبحسب عدد الكؤوس المتحركة، يكون عد الضيوف القادمين" تشرح أخرى. تحدثن مسترسلات عن طائر يتنبأ بوصول المسافر او رسالة منه او خبر عنه. إذا حط ذلك الطائر على جدار بيت من البيوت ،وأطلق عنان لسانه يغرد بصوته المميز عن بقية أصوات الطيور، قالت احدهن ممن يتواجدن بالمنزل:" حَبِيبِي، بُشَارَةٌ خَيْرٌ" فلا تمر أيام قليلة إلا وقد قدم المسافر أو توصلت العائلة برسالة منه، أو جاء أحدهم بخبر مفرح أو محزن عنه. كن يخفن صوته؛ ولذلك كن يرجين منه الإتيان بالخبر السعيد، فيرددن:" حَبِيبِي، بشارة خير يا حَبِيبِي". كيف يعلم هذا النوع من الطيور بهذه الأخبار وهو مجرد طائر بلا عقل؟ ولماذا هذا

دون غيره؟ ترى
هؤلاء النسوة
الطائر فأولينه
؟



النوع بالذات
كيف خبرت
فراصة هذا
تلك الأهمية

كان طائر السنونو، ان
دخل بيتا حمل اليه خيرا ورزقا واسعا، فكانت
النسوة وخصوصا العجائز منهن يمسكن به،
ويضعن دهنا على رأسه، زيتا او سمنا او زبدة بلدية -
كما يعبر عن ذلك في ذلك المجتمع- والمطلوب في
هذه الحال، هو هذه المادة المعروفة بالزبدة
المحلية، "لتأثيرها الكبير على قدرات ذلك الطائر
الخارقة وما سيجلبه من مطر وزرع". أي قوة كانت
تسكن هذين الطائرين حتى يكونا لصيقيين بحياة
الناس وبتحديد مستقبلهم وأرزاقهم بهذا المعنى
.مثلت هذه الأمور بالنسبة له خيالا واقعيا. خرافة
متحققة. صارت هذه المظاهر رمزا للشعوذة التي لا
تتحقق فقط على يد سحرة او عرافين، بل تتجلى
بأشكال أخرى داخل البيوت، بعيدا عن ساحات
المدينة و مشعوذيتها. كان حديثهن قناة يروي من
كلماته فضوله الى اكتشاف هذا الفضاء الساحر،
يُغذي من طُحلبها شغف قلبه الى التقرب من ذلك
العالم الفريد الذي تتلاطمه أمواج العواطف. تدفعها
بقوة عواصف التساؤلات السرمدية التي يفرضها
منطق العقل. كانت صورهن المختلفة، الزاهية
الألوان، وأصواتهن العالية، الدقيقة الناعمة
المتوجسة، وضحكاتهن المشرقة لا تفارق مخيلته.
لم ينس حركات أيديهن، ولن ينسى تلك الضحكات

المدوية كرعود آخر أيام الربيع .كن شغوفات مثله إلى معرفة ما يدور في رأس الحاضرات من بينهن خلال تلك الجلساتكانت المواضيع على كتاب الفكر الإسلامي والفلسفة حاضرة في اجتماعات هؤلاء النسوة ،وهن من يجهلن كل شيء عن هذا الفكر وعن رواده وأعلامه؛ وعن الفلسفة وما تخوض فيه من مواضيع وتطرحه من أفكار وتساؤلات. ظهرت شخصية " سيدي الشيخ "، "مولا عبّقادر" او من كن يسمينه "عبدالقادر جيلالي" ربما نسبة الى الزاهد المتصوف "عبدالقادر الجيلاني " أكثر حضورا في حديثهن؛ فلا تتفوه إحداهن بكلمة إلا وتبركت باسم هذا الفقيه العالم؛حتى إذا أنهت جملة من حديثها إليهن ،نظرت إلى السماء ونادت بصوت شبه مرتفع "أمولا عبقادر"،فترد عليها الأخريات "شايّ الله به".ثم يمررن أيديهن على وجوههن في حركة سريعة منضبطة متناسقة،يسلمن بعدها على رؤوس أصابعهن تقبيلًا؛ثم ينتقلن إلى حديث آخر.كانت هذه الشخصية حاضرة بقوة في وجدانهن؛ ربما لم يكنّ بحكم ضعف مستوى تعلمهن-مدركات للقيمة الحقيقية لهذه الشخصية،إلا وفقا لما أملتة التقاليد في مجتمعهن آنذاك.كلمات خطيرة بالنظر إلى ما يفهمه منها، وما تعنيه لهن."بوعلام الجيلالي "او"مولى بغداد"إسم كان يمثل قمة الارتباط بالماضي ،بالعادات ،بالتاريخ والعقيدة، لكنه أيضا كان يمثل قمة الانغماس في عالم الأسطورة والخرافة المظلم. كن يؤمنّ أن الوسيلة إلى الله تعالى في

إسجابه دعواتهن أو تحقيق مرادهن تكمن في الاستعانة بذلك الولي الصالح، صاحب الكرامات والبركات. "مولى بغداد" . لا تسافر دعوة إلى السماء إلا إذا "طبع" في ورقة من أوراق جوازها، كما شاع في تلك البيئة الفتية الصاعدة. كان ينكر عليهن هذا الفهم الذي يعني أن الله تعالى لا يشاء شيئاً إلا بتدخل هذا الرجل الصالح. فيصبح الدعاء بوساطة هذه الشخصية الميثة، بمثابة زكاة الفطر عند الصائم، لا يرتفع عمله إلا بإخراجها؛ كان يفهم منها لدرجة ما، نفي صفة القدرة المطلقة لله تعالى في تدبير شؤون خلقه بإرادته هو. لم يكن يفهم الأمر هكذا بالطبع، لكن عملياً، كان الأمر كذلك بالنسبة لهن. خلف تلك الصور الملونة تكمن أنواع من الأفكار الساذجة. لقد وضع الناس لهذه الشخصية مقامات في كل موضع من ضواحي المدن والقرى والمداشر، في الجبال والشنايا وعند كل منخفض. تزور النسوة هذه الأماكن حتى وإن وعرت الطريق إليها، أو بعدت المسافات عنها. يقدمن القرابين، يذبحن الذبائح من غفلتهن، شاة سميئة أو ديكاً أسود لمن لم يتوفر له لأجل الشاة مالا. قد يقطعن المسافات إلى مغارات سحيقة تم إيهامهن أن "مولى بغداد" مدفون بداخلها، أو مر من هناك ووضع يده على حجر من أحجارها، أو مسَّ حبة رمل من تربتها، فوجب التبرك بها، والتقرب إلى الله تعالى بواسطتها، أو بمجمل ذلك المكان البعيد الموحش داخل تلة أو هضبة أو حتى جبل من الجبال المحيطة أو المشرفة على مساكن الناس. لم تقبل

هؤلاء النسوة قط المساس بالرجل، ولا بأضرحتيه، ولا حتى بأمثاله إن وجدوا واعتقد بهم فريق دون آخر من الناس. كان "مولا بغداد"، يمثل الشخصية الوحيدة البارزة والفريدة في اجتماعاتهن، لم تنافسه شخصية أسطورية أخرى في أي ناد من نوادي لقاءاتهن. كانت مناقشتهن في أمره من المحرمات، وكذلك كان الأمر خطأ أحمر بالنسبة للرجال. ظلوا على دين نساءهم. يُقبَلون الحجر والتراب، ويقدمون الأموات. يُقبلون أصابع أيديهم بعد كل دعاء. يقبلونها بعد أن تلامس جباههم عدة مرات. كان اسم هذه الشخصية حاضرا كل الحضور و إقبال إحدى النساء على الولادة. كان الرجال والنساء يستحضرون اسمه كلما صاحت المرأة من وجع المخاض. ما كانوا ينادونه باسمه الحقيقي المؤلف، بل جعلوا له لقباً خاصاً لمثل هذه المناسبات يُستجاب الدعاء به فوراً. كانوا ينادون: "يا بوعمامة خضرا، يا سلاك لُوأخلات "؛ الوأخلات": هن النساء الحوامل اللاتي يعانين من ألم وعسر الولادة. وكلمة "سلاك" ترمز إلى " المُنَجِّي أو المنقذ" كانوا، و كانت النساء، و القابلات أساساً أو "المَوْلِّدات" منهن، يعتقدن بحصول البركة ساعة التوليد إن استعنَّ بذكر اسمه، كن يعتقدن بحضور ظله إلى جانبهن؛ يساعدهن على العمل، ويمد "المخلوقة" - كما كن يسمينها- بالطاقة اللازمة للخلاص.

ساورت عقله كثير من الأسئلة حول هذا الرجل في علاقته بهؤلاء الناس وبمصائرهم. كيف استطاع

السيطرة على عقول الناس بهذا العدد الكثيف ،ومن
الجنسين معا، كبارا و صغارا في الأمصار البعيدة؟ هل
فعلا كان يملك طاقة مميزة مكنته من التنقل وقطع
كل هذه المسافات الطويلة من المكان والزمان،
لينشئ لنفسه "خلوات للتعبد"؛ وليصل عبرها الى
قلوب الملايين من المريدين عبر الأقطار
المختلفة؟ هل كان فعلا يعيش في كل هذه المغارات
المظلمة وحيدا ،بعيدا عن الناس، دون أن يخاف
وحشا ضاريا ، او جنيا مرعبا ، أو يقهره البرد
الشديد القارص ، دون أن يشكو حرا أو جوعا أو ظمأ
؟ ما مبلغ علم هذا الرجل وقوته،وما مقدار
تدينه،حتى يستقطب كل هذه القلوب والعقول،
حتى انجذبت إليه، وتعلقت به ،وعلقت مآل حياتها
على بركاته؟ كيف احتوت جسده كل هذه الأماكن
الكثير عددا؟ بأي أسلوب خطابي تغلغل في عقول
الناس من شيب وشباب،و من صبيان ونساء؟ أم أنه
،لم يعتمد أسلوبا ،وما وظف وسيلة ؛بل إن مكانة
علمه السامية وزهده من ناحية،ومدى جهل هؤلاء
وتدني مستوى وعيهم من جهة أخرى،هما ما انتجا
هذا الواقع المركب ،هما الناقوس الذي أيقظ سُبَات
فكرهم ؛والوقود الذي أحرق عجلات تقدم
تفكيرهم؛ وسمح بتخلف أفكارهم حتى وان بدت
واعية،وهو الشأن عند جمهور المتعلمين، وأصحاب
الوظائف الذين أفقدوه مكانته العالمة الزاهدة أو
كادوا ...هل كان فريدا ،ام أنه مثل شخصيات
مختلفة تعلق الناس باحداها دون الاخرى؟

رأى تيمح خلوته داخل جرف ذي تربة حمراء طينية في بلدته الصغيرة . كانت نفقا يتعمق داخل الجرف، تسع كثيرا من زوار الضريح بعد عصر كل يوم . كانت له باب تغلق على القبر كلما انتهت الزيارة وحلول الليل بالقرية . رأى له ضريحا في مدينة سكن بها بعد هجرة الأسرة من القرية. كانت بابه تغلق على قبره . رأى ضريحه في مدينة أخرى، وفي أخرى أثناء رحلة الدراسة . وألفى الضريح في قرية عمل بها مدرسا. أماكن كلها احتوت أبوابا تغلق على القبر عقب كل زيارة .عجبا؛ لقد وجد له ضريحا في مدينة شهدت ميلاد أبنائه وبناته أيضا. ظل لعقود يحاول فهم سر و طبيعة هذا الرجل العظيم ،الزاهد الذي يضم جسده أكثر من قبر. أين يمكن أن يكون جسده الحقيقي؟ فإن كان لمجرد ظله تأثير كبير على تحقيق المرجوات بالنسبة لهؤلاء المساكين،فماذا لو عثروا على الذات الحقيقية؟ لكن، كيف ذلك؟ وأين؟